الانحرافات العقديّة... قراءة في الأسباب وآليات العلاج

السيد عبدالعزيز الصافي*

الخلاصة

تناولت هٰذه المقالة ظاهرة الانحراف العَقَديّ وبيان أهمّ الأسباب المعرفيّة والنفسيّة والاجتماعيّة الّتي تمهّد لنشوئها وإنتشارها.

والغرض من كلّ ذٰلك الوصول لمعرفة منهجيّة العلاج المناسبة والمتلائمة مع تلك الأسباب والدواعي، وذٰلك من خلال السعي للوصول إلى ضوابط وأسسٍ ثابتةٍ للعقيدة الحقّة من جهةٍ، والعمل على صياغة الطرق والأساليب النظريّة والتطبيقيّة الكفيلة في القضاء على ظاهرة الانحراف العَقَديّ أو التقليل من أضراراها وعواقبها الوخيمة في واقعنا المعاصر من جهةٍ أخرى،

(*) عبد العزيز الصوافي، العراق، طالب دكتوراه في قسم التفسير وعلوم القرآن، جامعة المصطفى العالمية. a.saffi@gmail.com

فهٰذه هي البداية الصحيحة لتشـــخيص مشكلة انحراف العقيدة عن ينبوعها الصافي الأصيل، ومعالجتها.

وتبـــيّن أنّ للانحرافات العَقَديّة مآلاتٍ وآثارًا ســـلبيّةً وخطيرةً تتشـــكّل بمظاهر وأشـــكالٍ مختلفةٍ على مســـتوى الفرد أو المجتمـــع، فتكون بمثابة الأعراض والآثار الدالّة على حصول تلك الانحرافات.

ومن المهمّ أوّلًا ـ وقبل الدخول في أســـاليب العلاج ـ تشـــخيص طبيعة الانحراف العَقَديّ، إذ تبيّن أنّـــه يتلخّص في أمرين يجب معالجتهما: الأوّل مشكلة الفراغ العَقَديّ، والثاني مشكلة منافذ الفساد.

كما تبيّن أنّ هنالك ثلاث طرقٍ أساسيّةٍ في كيفيّة مواجهة هاتين المشكلتين، وهي الطريقة الإنمائيّة التأسيسيّة، والطريقة الوقائيّة التحصينيّة، والطريقة العلاجيّة.

وتمّ تصنيف الطرق العلاجيّة في معالجة الانحرافات العَقَديّة إلى أسلوبين أساســـيين، أوّلهما العلاج النظريّ؛ ويتمّ تحقيقه من خلال معالجة الأسباب الّتي أدّت إلى شـــيوع فساد العقيدة فكريًّا ونظريًّا، وثانيهما العلاج العمليّ؛ ويتمّ تحقيقه من خلال معالجة الأســـباب الّتي أدّت إلى فساد العقيدة ضمن خطواتٍ وآليّاتٍ عمليّةٍ لصيانة العقيدة الحقّة، وعلاج ما فسد منها وانحرف.

المفـــردات الدلاليّة: العقيـــدة، الانحراف العَقَديّ، أســـباب الانحراف العَقَديّ، آليّات العلاج، العلاج النظريّ، العلاج العمليّ.

المقدّمة

إنّ في الدنيا طريقين: إمّا الاستقامة والصلاح، وإمّا الغواية والاعوجاج. فمن استقام فقد اهتدى، ومن اعوجّ فقد ضلّ. وطريق الضلال والانحراف قديمٌ منذ الانحراف الإبليسيّ الأوّل، إذ تمرّد اللعين على الأمر الإلٰهيّ في السجود لأبي البشر آدم ﷺ، مرورًا بعهد قابيل وهابيل، إذ تمّت في عهدهما أوّل جريمة قتلٍ، وبعدها تتالت بقيّة الانحرافات وعلى كلّ المستويات وإلى وقتنا الحاضر، وستبقى حتّى يرث الله الأرض ومن عليها، بدءًا من إنكار الإلوهيّة أو الربوبيّة، وانتهاءً بالانحرافات السلوكيّة المختلفة، وما اصطفاء الأنبياء والرسل وبعثتهم من قِبَل الله ﷻ إلّا لتقويم تلك الانحرافات الطارئة في تاريخ البشريّة الطويل، قال تعالى: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا} [سورة الكهف: 56].

والانحراف له مفهومٌ واسعٌ يشمل كلًّا من الانحراف الأخلاقيّ والسلوكيّ (الفسق والمعصية) والعَقَديّ (فساد العقيدة) وحتّى النفسيّ والبدنيّ والعقليّ؛ لأنّ الانحراف بمعناه العامّ هو الميل عن المقصد، أي الاعوجاج بعد الاستقامة.

وتتجلّى أهمّيّة البحث في خصوص الانحرافات العَقَديّة نتيجة مدى وخامة الآثار الناشئة والمترتّبة عليها؛ إذ تتّخذ تلك الانحرافات العَقَديّة مظاهر متنوّعةً، وينشأ عنها آثارٌ ضارّةٌ تُعدّ كالدلائل والآثار على وجود تلك الانحرافات وانتشارها.

وهٰذه المظاهر والآثار على مستويين:

الأوّل: على مستوى الفرد:
وهي الانحرافات الّتي ترتبط بأشخاصٍ محدّدين، وأهمّها:

1. ضعــف الإيمان: فالعقيدة الفاسدة وباعتبار تناقضها وتهافتها وضعف حجّتها نتيجة منافاتها للأصول العقليّة والمنطقيّة الســليمة، ومن مآلاتها المؤكّدة تزلزل الإيمان واليقين لدى معتنقيها، ويتبع ذٰلك التزلزل الكثير من الآثار الروحيّة والسلوكيّة السلبيّة والخطيرة؛ إذ يؤدّي الانحراف العَقَديّ إلى توجّهٍ فكريٍّ وعمليٍّ قائمٍ على موقفٍ من الدين يتّســم بالعداء حينًا والاحتقار حينًا وعدم المبالاة في أحيانٍ أخرى.

2. الاضطرابات النفسيّة: وتتمثّل عادةً بالشعور بالتأزّم النفسيّ، وعدم الاطمئنان، وشيوع حالة القلق نتيجة تبنّي العقيدة الفاسدة المتناقضة والمتهافتة في ذاتها ولوازمها.

ولعلّ السرّ في ذٰلك يعود إلى أنّ صاحب الانحراف العَقَديّ يفتقر إلى وجود غايةٍ واضحةٍ لحياته، وهو معنًى مرتبطٌ بالأساس بمعرفة الله وطاعته والسير على هدى نبيّه ﷺ، قال تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ} [سورة طٰهٰ: 124].

فالعقيدة الصحيحــة إجمالًا أمنٌ وأمانٌ، وراحــةٌ واطمئنانٌ، والمؤمنون الصادقون مطمئنّون هانئون، وهم أقدر الناس على مواجهة المحن والخطوب، والإغراءات والابتــلاءات، يمنحهم الله القوّة والهدايــة، ويرزقهم الصبر والثبات.

3. الانحـــراف الأخلاقيّ: تُعدّ العقائد الدينيّة الحقّة رصيدًا وضمانًا للأصول الأخلاقيّة السامية، يقول الشيخ سبحاني: «إذ التقيّد بالقيم ورعايتها لا ينفكّ عن مصاعب وآلامٍ يصعب على الإنســـان تحمّلها إلّا بعاملٍ روحيٍّ يســـهّلها ويزيل صعوبتها له، وهٰذا كالتضحية في ســـبيل الحقّ والعدل، ورعاية الأمانة ومساعدة المستضعفين، فهٰذه بعض الأصول الأخلاقيّة الّتي لا تُنكر صحّتها، غير أنّ تجسيدها في المجتمع يستتبع آلامًا وصعوباتٍ، والاعتقاد بالله سبحانه وما في العمل بها من الأجر والثواب خير عاملٍ لتشـــويق الإنسان على إجرائها وتحمّل المصائب والآلام» [سبحاني، جعفر، محاضراتٌ في الإلٰهيّات، ص 14].

4. الغلوّ أو المجافاة: وكلاهما بمعنى تجاوز الحدّ، والابتعاد عن التوسّـــط وحدّ الاعتدال في الدين والعقيدة، إمّا بالزيادة والتشدّد والإفراط، وهو المعبّر عنه بالغلوّ والتطرّف العَقَديّين، وإمّـــا باللامبالاة أو المجافاة في الاعتقاد لما يجب الاعتقاد به، كأصحاب الفكر التنويريّ التفريطيّ، الّذين سعوا لعزل الدين عن العلم أسوةً بالغرب، وأصحاب الفكر التجديديّ الإفراطيّ الّذين عدّوا الإسلام مجرّد مرحلةٍ زمنيّةٍ ماضيةٍ، وأصحاب الفكر التحديثيّ المبتدع في الدين باسم التجديد.

5. التكفـــير: وهو حاصلٌ غالبًا لدى بعض المنحرفـــين عَقَديًّا من الغلاة والنواصب، حيث يقودهم انحرافهم الإفراطيّ في الاعتقاد بتكفير من خالفهم بالرأي والعقيدة من المسلمين.

ولا شـــكّ أنّ هٰذا الأمر في غاية الخطورة؛ لما يترتّب على تكفير المســـلم من أحكامٍ خطيرةٍ، من قبيل الإفتاء بارتـــداده، والتفريق بينه وبين زوجه، وفقدانه حقّ الولاية على أبنائه، فلا يرث ولا يُورَّث، وعند موته لا يُغسّـــل

ولا يُكفّن، ولا يُصلّى عليه، ولا يُدفن في مقابر المســـلمين، وغير ذٰلك من الأحكام الفقهيّة.

6. الإرهـــاب: وهو مظهرٌ آخر من مظاهر الانحـــراف العَقَديّ الإفراطيّ، وثمرةٌ من ثمراته المرّة ونتائجه السيّئة.

والميزة الطاغية في عالمنا الإســـلاميّ اليوم أنّ العمليّات الإرهابيّة تتّخذ في الغالب من الصبغة الدينيّة طابعًا ومبرّرًا لها؛ نتيجةً لمؤثّرات وعوامل متعدّدةٍ، ولعلّ الغلوّ والتطرّف الدينيّين من أهمّها.

ورحم الله الشاعر حين قال:

ابتُلينا بـــ (إمامٍ) ذكرَ الله وسبّح فَهْوَ كالجزّار فينا يذكرُ الله ويذبح

فالانحراف العَقَديّ بطبيعته لا بدّ وأن يتحوّل ـ متى ما توفّرت له الظروف المناســـبة ـ من مجرّد تعصّبٍ لرأيٍ أو عقيدةٍ معيّنةٍ إلى منهج تفكيرٍ وســـلوكٍ غالبًا ما يستخدم أسلوب العنف وســـيلةً لتحقيق أهدافه أو معتقداته، من خلال اســـتخدام الإرهاب الفكريّ أو النفسيّ أو المادّيّ، حيث يبتدئ ذٰلك الســـلوك الإقصائيّ عادةً بالعزلة والمقاطعة لمحيطه، ثمّ يتدرّج ليتّخذ صورةً أكـــثر عدائيّةً وتطرّفًا، يرى فيها ذٰلك المنحرف أو المتطرّف الإرهابيّ أنّ هدم المجتمع ومؤسّساته رسالته الأولى في الحياة، أو جهاده الّذي به يتقرّب إلى الله تعالى.

وتتّضح خطورة الإرهاب فيما يُفرزه من مشـــكلاتٍ وآثارٍ على حياة الفرد والمجتمع على الســـواء، فالإرهاب والجرائم المرتبطة به هما كالبوصلة الدالّة على فساد فكر عقيدة حامله، ومدى خروجه عن جادّة الصواب، وهو عامل

هدمٍ، وسبيل دمار، يُهدّد أمن الناس، ويضرّ بممتلكاتهم وأرزاقهم.

وفي مقابـــل ذٰلك فإنّ الإيمان العميق بالله لا بـــدّ أن ينتج أمنًا واطمئنانًا للإنسان، سواءٌ على المستوى الشخصيّ أو الاجتماعيّ. قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَـٰـئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [سورة الأنعام: 82].

7. نســيان الهويّــة وفقدانها: ولعلّهــا من أخطر المــآلات الّتي يعانيها صاحب الخلــل العَقَــديّ؛ لأنّ الفكر المنحرف ضعيــف الانتماء للوطن والأمّة الإســلاميّة، شــديد التعلّق والانبهار بما لدى الغرب. ومن ثمّ يصير فريسةً سهلة الاصطياد لكلّ صاحب فكرٍ منحرفٍ أو مذهبٍ هدَّامٍ أو عقيدةٍ تكفيريّةٍ.

الثاني: على مستوى المجتمع:

وتتلخّص مآلات الخلل العَقَديّ على مستوى المجتمعات المختلفة بثلاث مراحل أساسيّةٍ يترتّب بعضها على بعضٍ:

فأمّا المآل الأوّل فيتمثّل بظهور البدع العَقَديّة وتفشّــيها بين المسلمين، وتُعدّ من أخطر أنــواع البدع الدينيّة وأكثرها شــيوعًا؛ ولذا جاءت أغلب إطلاقات الشرع في ذمّ البدعة منصبّةً عليها، بل هي المتبادرة في الســبق إلى الذهن من إطلاق اســم البدعة شرعًا. [انظر: عزّت عــلي عطيّة، البدعة.. تحديدها وموقف الإسلام منها، ص 403]

ومن هنا كان المبتدع ضــالًّا عليه وزر عمله، ومضلًّا عليه أوزار الّذين اتّبعــوه في بدعته، قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَــةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ *وَمِنْ

أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ * أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [سورة النحل: 25].

ويترتّب على ظهور البدع العَقَديّة مــآلٌ ثانٍ من مآلات الخلل العَقَديّ، وهو ظهور الفرق والأحزاب والجماعات المنحرفة عقديًّا.

فالمبتدع عندما ينعزل بفكره عن الفهم الإسلاميّ الصحيح لمسائل العقيدة وأصولها، تتكوّن لديه يومًا بعد يومٍ قناعاتٌ وتفسيراتٌ تختلف عمّا هو عليه واقع العقيدة الحقّة. ثمّ تتّســع الهوّة أكثر فأكثر بكثرة الأتباع، إلى أن تتكوّن الفِرقة، وتتكوّن لديها تدريجيًّا منظومةٌ فكريّةٌ وعَقَديّةٌ مستقلّةٌ في كثيرٍ من نواحيها، ويتبع ظهور الفرق الكلاميّة المتخاصمة تمزّق النسيج الاجتماعيّ وإضعاف اللحمة الوطنية، وبالتالي تهديد تماسك المجتمع ووحدته، نتيجة انحلال المبادئ والقيــم الّتي تقوم عليها وحدة المجتمــع؛ وهٰذا ما يقود إلى زعزعة البناء الأُسريّ أيضًا. [انظر: رمضان الغنّام، الخلل العَقَديّ أســبابه ومآلاته، ص 1]

يقول الشــيخ ســبحاني: «إنّ العقيدة الدينيّة]أي الحقّة[تساند الأصول الاجتماعيّــة الّتي تحفظ وحدة المجتمع؛ لأنّها تصبح عند الإنســان المتديّن تكاليف لازمةً، ويكون الإنســان بنفســه مقودًا إلى العمل بها وتطبيقها في واقعه الحياتيّ، أي إجراء التكاليف والقوانين الاجتماعيّة في شــتّى الحقول» [سبحاني، جعفر، محاضراتٌ في الإلٰهيّات، ص 14].

كما أنّ تمزّق النســيج الاجتماعيّ يهيّئ المجتمع ويحفّــزه لتقبّل انتقال مذاهب الغرب وفلســفاته المادّيّــة والإلحاديّة إلى مجتمعاتنا الإســلاميّة، كالعلمانيّة والليبراليّة والشــيوعيّة واللادينيّة، بل وظهور جبهةٍ من العملاء المفكرين المتبنّين لأفكار الغرب، والنتيجة المؤكّدة لكلّ ما ســبق من مآلات الخلل العَقَديّ هي الانتكاسات الحضاريّة في هٰذه الأمّة الإسلاميّة.

وهٰكـــذا كانت جذوة الانحراف العَقَديّ بين الخفوت حينًا، والاشـــتعال حينًا آخر، ممّا يؤكّد أنّ هناك مرحلتين:

المرحلة الأولى: مرحلة الضمور، وتكمن في شـــخصٍ قد استهوته نفسه، وهو يتحيّن الفرصة لإبراز انحرافه العَقَديّ في شكل بدعةٍ، أو ما شابه ذٰلك.

المرحلة الثانيـــة: مرحلة الظهور، وهي مرحلة إبـــراز الفكرة أو العقيدة المنحرفـــة علنًا إلى حيّز التنفيذ والتطبيق في أجواءٍ ممهّدةٍ ومشـــجّعةٍ، وذٰلك حينما تخلو الســـاحة من الفكر، أو حينما يعمّ الخـــواء المعنويّ والمعرفيّ في الأمّة؛ جرّاء تكاسل القيّمين في الأخذ بيدها إلى واحة الإيمان والعلم.

الأوّل: مفهوم الانحراف العَقَديّ

1. معنى العقيدة

إنّ لفظ (عقيدة) مشـــتقٌّ من المصدر (عَقْد)، الّذي يعني الإحكام والشدّ بقوّةٍ، فيقال: عقد الحبل يعقده: شدّه بقوّةٍ، ويقال: عقد العهدَ والبيعَ: شدّه [ابن منظورٍ، لسان العرب، ج 3، 3313

97]. ويقـــال: اعْتَقَدْتُ كَذَا عَقَدْتُ عَلَيْـــهِ الْقَلْبَ وَالضَّمِيرَ [الفيوميّ، المصباح المنير، ج 2، ص 575].

وتُستعمل مفردة العقيدة ـ عند المتكلّمين ـ بمعنيين، هما:

الأوّل: العقيدة بمعنى ما يُعتقد به، وهو الاســـتعمال الشائع في تعريفات الســـابقين للعقيدة، فالعقيـــدة: «ما يُقصد به نفـــس الاعتقاد دون العمل» [الإيجيّ، عبد الرحمٰن بن أحمد، المواقف، ج 1، ص 31].

ولذا عُرّفت العقيدة الدينيّة بأنّها: «ما يؤمن به الإنسان ويعتقده كوجود الله

وبعثة الرســـل، والعقاب والثواب وغيرها» [صليبا، جميل، المعجم الفلسفيّ، ج2، ص 92].

الثاني: العقيدة بمعنى حصول إدراكٍ وانعقادٍ وتصديقٍ في ذهن الإنسان، أي التصديق والجزم دون شكٍّ.

ولذا عُرِفت العقيــدة أيضًا بأنّها: «حصول إدراكٍ تصديقيٍّ ينعقد في ذهن الإنسان» [الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، ج 4، ص 117].

وهٰذا هو الاستعمال الشائع عند المتأخّرين، فالعقيدة لديهم عمومًا بمعنى «الحكم الّذي لا يقبل الشــكّ فيــه لدى معتقده» [صليبــا، جميل، المعجم الفلسفيّ، ج2، ص 92].

2. الانحراف العَقَديّ

الانحراف، هو المصدر عن الفعل انحرف، ومعنى الانحراف لغةً هو الميل والعدول. يقال: انحرف وتحرّف، أي: مــال وعدل عن الطريق. [انظر: ابن منظورٍ، لسان العرب، ج 9، ص 49]

فإذا خرج الســائق عن خطّ الســير يقال عنه إنّه انحرف عن الطريق، وهٰكذا إذا خرج المسلمُ عن ضوابط الدين وقواعد الشريعة، نقول عنه كما نقول عن السائق، إنّه خرج عن خطّ السير أو منهاج الشريعة.

والقدر المتيقّن مــن كلمة الانحراف هو: الميــل، والعدول عن الشيء، ويكفي فيها أنّهــا حينما تطلق مجرّدةً فالمتبادر منها عرفًا في المجال الدينيّ هو الزيغ والضلال والميل عن طريق الحقّ إلى طريق الباطل، سواءٌ في العقائد، أم في المفاهيم الدينيّة أم في الســلوك. [الشرافيّ، زاهر مصطفى، دور العقيدة في

علاج الانحرافات العَقَديّة والسلوكيّة، ص 3]

وقد عُرّف خصوص الانحراف العَقَديّ بأنّه: «كلّ أمرٍ من شأنه أن ينحرف بالعقيدة الصحيحة عن أصالتها وأصلها، فيسلك المرء سبيلًا غير سبيل الرسل والأنبياء، وينتهج نهجًا بدعيًّا مبتعدًا عن هدي الرسل والأنبياء، في أمور الاعتقاد» [انظر: رمضان الغنّام، الخلل العَقَديّ أسبابه ومآلاته، ص 1].

3. أنواع الانحرافات العَقَديّة

ينقسم الانحراف العَقَديّ بحسب درجة بُعده عن العقيدة الحقّة ونبعها الصافي إلى قسمين أساسيّين:

أ. الانحراف العَقَديّ المُخرِج من الدين والملّة (الكفر الصريح).

ب. الانحراف العَقَديّ غير المُخرِج من الدين والملّة (فساد العقيدة وضلالها).

فأمّا الانحراف العَقَديّ المخرج من الدين والملّة، فقد اختلفت آراء فقهاء المسلمين في بيان سعته أو ضيقه؛ نتيجة اختلافهم في حقيقة مصطلح الكفر المخرج من الملّة، أو ما يُعبّر عنه بالاصطلاح الفقهيّ للكفر.

وقد اتّفق أكثر فقهاء الشيعة المتأخّرين على أنّ الكفر بالاصطلاح الفقهيّ يُطلق على منكر الإلوهيّة أو التوحيد أو الرسالة، أو منكر ضروريٍّ من ضروريّات الدين مع الالتفات إلى ضرورته، معلّلين ذٰلك بكون هٰذا الإنكار يرجع في حقيقته إلى إنكارٍ وتكذيبٍ للرسالة نفسها. [اليزديّ، كاظم، العروة الوثقى، ج 1، ص 67]

وأمّا الانحراف العَقَديّ غير المخرج من الدين والملّة فمنشؤه فساد العقيدة وضلالهـــا من دون أن يصل به ذٰلك الانحراف إلى حدود الكفر الصريح، ومن أمثلة ذٰلك الكثير من البدع العَقَديّة الّتي عُدّت من المعاصي، وليست بكفرٍ أو اختُلِـــف فيها أهي كفرٌ أم لا؟ [انظر: الشـــاطبيّ، الاعتصام، ج 2، الباب السادس، ص 516]

وممّا ســـبق يتّضح أنّ تحديد نوع الانحراف العَقَديّ يعتمد على أهمّيّة ما يجب الاعتقاد به من المفاهيم الدينيّة، وما لا يجب.

الثاني: بيان خصائص ومعايير العقيدة الحقّة

بعد أن تبيّن أنّ العقيدة بأبســـط معانيها هي عقد القلب على مجموعةٍ من القضايا عقدًا جازمًا بصحتها؛ ســـواءٌ كانت عقيـــدةً صحيحةً، أم عقيدةً باطلةً، لا بدّ من الإشـــارة إلى جملةٍ من الأمارات والخصائص الّتي تميّزت بها العقيدة الحقّة عن سائر العقائد الوضعيّة أو الدينيّة المحرّفة.

وهٰذه السمات في حقيقتها تُعدّ ملاكاتٍ ومعايير لتمييز العقيدة الصحيحة من العقيدة الخرافيّة أو الباطلة، وأهمّ تلك الخصائص:

1. أنّها مبتنية على الأحكام العقليّة البديهيّة

وهي العقيـــدة العقلانيّة الّـــتي تعتمد على الأوليّـــات المعرفيّة والبراهين العقليّـــة البرهانيّة ذات الحجّة الدامغة؛ فلا تشـــتمل تلـــك العقيدة على ما ينافي أحكام العقل ومبادئه الثابتة كاســـتحالة اجتماع النقيضين أو استحالة الضدّين وغيرهما بعد أن أودع الله في عقل الإنسان وفطرته ما يدلّه ويوصله

إلى الحقّ والصواب.

وبذٰلك يتّضح أنّ العقيدة الحقّة ـ ولأنها قائمةٌ على قواعد التفكير السليم ذات الأسس العقليّة والمنطقيّة الصحيحة ـ هي العقيدة الوحيدة الّتي تمتلك رؤيةً فكريّةً واضحــةً تقوم على الإيمان بخالقٍ ومدبّرٍ تتوحّد فيه كلّ الغايات وكلّ التطلّعــات البشريّة، معتمــدةً في ذٰلك على الحجّــة العقليّة والبراهين الجليّــة؛ إذ يأمر ـ تعالى ـ نبيّه محمّدًا ﷺ أن يقــول لمن أشرك بالله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سورة سبإٍ: 24].

ويُلاحــظ أنّ العقيدة الإســلاميّة ونتيجــة موافقتها للعقــل والفطرة الســليمتين هي عقيدةٌ بيّنةٌ ولم تكن عقيدةً مبهمةً ومعقّدةً كما هو الحال في العقيدة النصرانيّة المحرّفة الّتي لا يســتطيع حتّى المتدّين بها أن يجد تفسيرًا معقولًا لمسألة التثليث والأقانيم الثلاثة في لاهوتها. [انظر: سبحاني، في ظلّ أصول الإسلام، ص 12]

2. ربّانيّة العقيدة

وتعــني أنّها موحًى بها من الله تعالى؛ ولذا فــإنّ العقيدة الّتي يأتي بها أيّ إنســانٍ من عنده عقيدةٌ باطلةٌ لا محالة، قال تعــالى: ﴿وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَن نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا...﴾ [سورة الشورى: 52].

وتُعدُّ ســمة الربّانيّة من الخصائص المهمّة للعقيدة الحقّة، كما أنّ أغلب خصائص العقيدة الصحيحة الأخــرى في حقيقتها إنّما تنبثق وترجع إليها؛ فهي ـ أي العقيــدة الحقّة ـ وباعتبار ربّانيتها تتمــيّز بخصائص فريدةٍ عن

بقيّة التصوّرات الفلسفيّة أو العلميّة. [سميرة عمر، أثر العقيدة في الفرد والمجتمع، ص 62]

ويترتّب على الاعتقاد بربّانيّة العقيدة جملةٌ من الآثار واللوازم، وأهمّها:

أ. أنّها مبرّأةٌ من كلّ نقصٍ وجهلٍ، سالمةٌ من كلّ عيبٍ، بعيدةٌ عن الحيف والظلم؛ لأنّ الله تعالى: ﴿لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة الروم: 27].

ومن ثمّ فهي العقيدة الوحيدة الّتي يمكن أن ينبثق منها أو يقوم عليها أقوم منهج للحياة. ﴿إِنَّ هٰذا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [سورة الإسراء: 9].

ب. أنّها عقيدةٌ خالدة: فالعقيدة الحقّة لمّا كانت ربّانيّةً لزم أن تكون عقيدةً ثابتةً في أصولها أوّلًا، وشاملة لكلّ الناس وفي كل زمانٍ ومكانٍ ثانيًا، وهٰذا يعني أنّها تمتلك مقوّمات الخلود والخاتميّة، قال الله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ [سورة يونس: 64].

وكمال العقيدة وخلودها هو الّذي يُطمئن النفس في أنّ السعادة الإنسانيّة بشقّيها المادّيّ والمعنويّ تكمن في اعتماد مثل هٰذه العقيدة وتنفيذ غاياتها، وأنّ الشقاء يترتّب على جحودها وترك العمل بها.

جـ. أنّها عقيدةٌ تخلق الإحساس المؤكّد بالمسؤوليّة في ضمير معتنقيها والمؤمنين بها تجاه خالقهم ومجتمعهم؛ وذٰلك باعتبار أنّ العقيدة الحقّة ليست من نتاج الإنسان وبنات تصوّراته وأفكاره، وهٰذا ما يوجب احترامها والالتزام بها. كما أنّ العقيدة الربّانيّة مثلها الأعلى هو الله تعالى، وهو واقعٌ عينيٌّ وواقعيٌّ منفصلٌ عن ذات الإنسان؛ وهٰذا ما يفرض وجود صلةٍ موضوعيّةٍ

وواقعيّةٍ بين الإنســـان وهٰذا المثل الحقيقيّ الأعلى [انظر: الصدر، محمدباقر، المدرسة القرآنيّة، ص 152]، وهٰذا ما يفسّر لنا كيف أنّ الأنبياء والأولياء كانوا من أصلب الثوّار وأخلصهم على طول مسيرة التاريخ.

3. فطريّة العقيدة

ولعلّها من أجلى الســـمات؛ إذ إنّ العقيدة السليمة عقيدةٌ منسجمةٌ تمام الانسجام مع الفطرة البشريّة؛ لأنّها وببساطةٍ تلبّي كلّ الجوانب الأصيلة فيها؛ كما أنّها تنسجم مع ما يدور في خلج الإنســـان من أسئلةٍ وأفكارٍ ملحّةٍ حول وجود خالقٍ مدبّرٍ لهٰذا الكون العظيم، حتّى قبل أن يَعرف الإيمان أو يتعلّمه.

وليس هٰذا بالأمر الغريب؛ إذ إنّ خالق الإنســـان العليم بحاله هو الّذي شرّع له من الدين ما يناســـب فطرته الّتي خلقه عليها: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [سورة الملك: 14].

والتجربة الوجدانيّة أكبر شـــاهدٍ على موافقة الفطرة الإنســـانيّة للعقيدة الحقّة القائمة على الإخلاص لله وحده، فما أن يصاب الإنسان بضرٍّ أو يشرف على هلاكٍ، وتعجز أمام هٰذا الخطب كلّ القوى المادّيّة، فإنّه يلتجئ إلى الله ـ تعالى ـ في تذلّلٍ وخضوعٍ، ويستوي في ذٰلك الكافر والمؤمن على السواء.

4. واقعيّة العقيدة

وهي إحدى مزايا العقيدة الحقّة وتعـــني أنّ متعلّق مثل هٰذه العقيدة هو حقائق موضوعيّةٌ ذات وجودٍ حقيقيٍّ، فهي ليســـت مجـــرّد تصوّراتٍ عقليّةٍ محضةٍ أو مثاليّاتٍ لا توجد إلّا في داخل العقل الإنسانيّ كما يدّعي ذٰلك بعض

أصحاب الفلسفات المثاليّة الباطلة [سميرة عمر جمجوم، أثر العقيدة في الفرد والمجتمع، ص 4].

فالإلٰه الحقّ في التصوّر الإسلاميّ مثلًا موجودٌ مريدٌ وفعّالٌ لمّا يريد، بل ويمكن إدراك آثاره الواقعيّة وتدبيره المستمرّ. والمؤمن الحقيقيّ هو من يتعامل مع الحقيقة الإلٰهيّة متمثّلةً بآثارها الإيجابيّة وفاعليّتها الواقعيّة. [انظر: سيّد قطب، خصائص التصوّر الإسلاميّ، ص 169]

وتنقسم العقيدة تبعًا لواقعيّتها أو مطابقتها للواقع إلى عقيدةٍ صحيحةٍ، وهي المطابقة للواقع؛ مثل التصديق اليقينيّ بوجود الله ـ تعالى ـ ووحدانيّته، فهو اعتقادٌ بعقيدةٍ صحيحةٍ؛ لأنّها موافِقةٌ للواقع، وعقيدةٍ باطلة، وهي المخالفة للواقع؛ مثل اعتقاد النصارى أنّ الله ثالث ثلاثةٍ، فهو اعتقادٌ، ولٰكنّه باطلٌ؛ لأنّه مخالفٌ للواقع.

5. الاعتدال والوسطيّة

ووسطيّة العقيدة الحقّة تعني أنّها عقيدةٌ تقع ما بين الغلوّ والمجافاة أو بين الإفراط والتفريط الاعتقاديّين، وهٰذه الوسطيّة هي ما عُبّر عنها قرآنيًّا بقوله سبحانه: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [سورة الفاتحة: 5].

فالعقيدة الحقّة تنبذ التشدّد والغلوّ بغير الحقّ، وترفض في مقابل ذٰلك المجافاة؛ أي التساهل واللا مبالاة في الاعتقاد.

وتُعدّ سمة الوسطيّة أو الاعتدال من أظهر خصائص العقيدة الصحيحة، قال تعالى: ﴿وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [سورة البقرة: 143]، وقد جاءت هٰذه الآية في مقام الامتنان على المسلمين، ممّا يدلّ على صوابيّة المسلك

الوسطيّ في الرؤية الإسلاميّة عمومًا.

6. شموليّة العقيدة

فالعقيدة الحقّة لا تقتصر على تنظيم علاقة الإنسان بخالقه فقط، أو تختصّ بقومٍ أو طائفةٍ كاليهود أو غيرهم، بل من خلال تشريعاتها تنظّم علاقة الإنسان بخالقه وبأخيه الإنسان فردًا وجماعةً معًا؛ فهي تلبّي كلّ حاجات الإنسان المادّيّة والمعنويّة، الفرديّة والاجتماعيّة. ولهذه الحاكميّة الإلٰهيّة الشاملة من أهمّ ما امتاز به الدين الإسلاميّ وعقيدته الحقّة عن غيره من العقائد والديانات الأخرى.

الثالث: أسباب الانحراف العَقَديّ

إنّ معرفة أهمّ أسباب الانحراف العَقَديّ وأكثرها تأثيرًا في قضيّة فساد العقيدة وانحرافها هي مقدّمةٌ ضروريّةٌ لكيفيّة تشخيص ظاهرة الانحراف العَقَديّ وعلاجها؛ إذ لو لم تكن لدينا المعرفة الكاملة والصحيحة بتلك الأمور؛ فإنّ أيّ عمليّة تشخيصٍ أو معالجةٍ لظاهرة الانحراف العَقَديّ، وأعراضها وآثارها المترتّبة عليها لن تكون مُجديةً وفعّالةً. قال أمير المؤمنين عليٌّ ؑ: «لكلّ ضلّةٍ علّةٌ، ولكلّ ناكثٍ شبهةٌ» [نهج البلاغة، الخطبة 148].

وبالنظرة الشاملة المتوازنة نستطيع أن نجزم بأنّ الأسباب والدوافع متشابكةٌ ومتداخلةٌ، فالظاهرة الّتي أمامنا ـ الانحراف العَقَديّ ـ ظاهرةٌ مركّبةٌ ومعقّدةٌ جدًّا.

إلّا أنّ لهذه الظاهرة وكأيّ ظاهرةٍ أخرى لها أسبابٌ ودواعٍ تجب معرفتها وتحليلها؛ ولذا سوف أكتفي ببيان الأسباب العامّة للانحرفات العَقَديّة دون

الدخول في تفاصيل الانحرافات العَقَديّة المختلفة؛ لأنّ ذٰلك سوف لا تسعه هٰذه الدراسة المختصرة، ويمكن تقسيم تلك الأسباب بشكلٍ عامٍّ إلى:

النوع الأوّل: الأسباب المعرفيّة

وهي ناشئةٌ عن الخروج عن المسالك المعرفيّة الصحيحة منهجًا ودليلًا وحجّةً، أو نتيجة اعتماد المبادئ غير الصالحة للاستعمال في تحصيل المعرفة. [محمد ناصر، الإلحاد أسبابه ومفاتيح العلاج، ص 55]

وتُعدّ الأسباب المعرفيّة من أخطر الأسباب وأكثرها انتشارًا في حصول الانحرافات العَقَديّة في المجتمعات الإنسانيّة؛ ذٰلك أنّ أصحاب الفكر المنحرف معرفيًّا لا يكتفون بإعلان انحرافهم وهشاشتهم الفكريّة فحسب؛ بل يسرفون في السعي لتضليل الناس أو تكفيرهم مستبيحين بذٰلك دماءهم. فالعقليّة المنحرفة معرفيًّا عقليّةٌ مؤدلجةٌ ومنغلقةٌ عن الآخر المخالف. ومن أهمّ مناشئ الانحراف المعرفيّة:

أ. ضعف البنية العَقَديّة وهشاشتها

قد يكون سبب انحراف بعض المنحرفين عدم امتلاكهم القدرة على التمحيص والنقد لكلّ ما يُعرض أمامهم من أفكارٍ وشبهاتٍ، فيكون هٰذا الأمر بابًا للوقوع في الانحراف العَقَديّ، بينما لو تريّث حتّى يزداد علمًا ورسوخًا لكان قراره مختلفًا تمامًا، ومن هٰذا الباب تأتي المقولة المشهورة لفرانسيس بيكون (1561 ـ 1626م) رائد المنهج التجريبيّ: «إنّ جرعةً ضئيلةً من الفلسفة قد تميل بذهن الإنسان الى الإلحاد، غير أنّ التعمّق في دراسة الفلسفة يُلقي بالإنسان في أحضان اليقين» [انظر: محمّد العوضيّ، ملاحدةٌ من بلدي، ص 1].

ولعلّ من أهمّ الأسباب المنطقيّة لهشاشة الفكر والعقيدة:

أوّلًا: قَصر المعرفة على البعد الحسّيّ، وهٰذا ما أدّى إلى إنكار وجود الله ـ تعالى ـ وكلّ ما وراء الطبيعة من عوالم، أو عدم الاعتقاد ببعض العقائد ذات البعد الغيبيّ المحض.

ثانيًا: توهّم التضادّ بين الدين والعلم. وهٰذا ما نجده من توظيفٍ غير علميٍّ من قِبل الملحدين أو اللا دينيّين لبعض ما طُرح من فرضيّاتٍ أو نظريّاتٍ علميّةٍ، أو تطويرٍ لها كنظريّة النشوء والارتقاء، أو نظريّة التطوّر لدى دارون ـ الّتي كان لها دويٌّ كبيرٌ في العالم حين ظهورها ـ وبعض أبحاث الفيزياء الذرّيّة وعلوم الأحياء والجينات وغيرها، إذ قاموا باستغلالها بطريقةٍ غير معرفيّةٍ ولا علميّةٍ في ادّعاء تضادّها مع العقيدة الدينيّة والهدف من كلّ ذٰلك إنكار وجود الله الخالق، والقول بالصدفة، وإشاعة الإلحاد واللادينيّة والانحلال في المجتمعات المختلفة.

ثالثًا: تبنّي الأحكام الوهميّة؛ وهي جميع الأحكام الّتي ينشأ الحكم بها اعتمادًا على حال خيالنا قدرةً وعجزًا واضطرارًا. [ناصر، محمد، الإلحاد أسبابه ومفاتيح العلاج، ص 56]

رابعًا: الجهل بالمنطق، والاستئناس بالحسّ والعرف العامّ الاجتماعيّ، كالجهل بالفرق بين عدم العلم بالشيء الذي هو من الجهل بالشيء، وبين العلم بعدم الشيء [المصريّ، أيمن، نهاية حلم "وهم الإلٰه"، ص 82]

ب. الجهل بالدين ومقاصده

يُعدّ الجهل الواضح بالدين ومقاصده من أقوى العوامل المؤدّية إلى ظهور

الانحرافات والشـبهات العَقَديّة المختلفة؛ إذ إنّ البيئـة الجاهلة تُعدّ مكانًا خصبًا لنموّ البدع والخرافات البالية وانتشارها.

فكما أنّ سبيل الهداية والحقّ يستنير بالعلم الّذي دلّ عليه العقل والنصّ الثابت عن المعصومين عليهم السلام، فإنّ سـبيل الضلال والانحراف يكون بالجهل والإعراض عن منهج العقل والرسـل وأئمّة الحقّ. قال الإمام عليٌّ ع: «الجهل مضلّةٌ» [الآمديّ، غرر الحكم ودرر الكلم، ج 1، ص 12، 258].

إنّ أدنى تأمّـلٍ في واقع أكثر المنحرفين عقديًّا مـن الغلاة والمتطرّفين أو اللادينيّين والملحديـن يقودنا إلى حقيقة أنّهم يتمـيّزون في الغالب بالجهل بالدين ومقاصده، ولعلّ أهمّ أسباب الجهل بالدين ومقاصده:

أوّلًا: التأويل الفاسـد والتفسـير الخاطئ لنصوص الكتاب والسنّة، أو التمسّك بظواهر النصّ دون النظر إلى المقاصد والغايات الدينيّة والشرعيّة.

ثانيًا: الضعـف المنهجيّ في كيفيّة التعامل مع النقـل والعقل، أو الجهل بالمنهج العقليّ البرهانيّ نتيجة عدم معرفة المساحات المشروعة لنفوذ العقل، والناسُ ـ كما قال أمير المؤمنين ع ـ أعداءُ ما جهلوا.

ثالثًا: التقليد الأعمى في العقيدة، ويشكّل مثل هٰذا التقليد المذموم مخاطر جمّةً على عقيدة الفرد المسـلم، فقد يكون سـببًا للكفر والإلحاد، أو سبيلًا لموالاة الكافرين والمنحرفين، أو مسخًا للشـخصيّة أو الهويّة الإسلاميّتين؛ نتيجـة الاقتداء بالكفّـار والمنحرفين عقديًّا واتّباع نهجهـم في الحياة. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَـابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [سورة المؤمنون: 117].

كما أنّ التقليد الأعمى للآخرين دليـلٌ واضحٌ على عدم الثقة بالنفس،

وكاشــفٌ عن ضعف الإحاطة بالعقيدة الإســلاميّة وثوابتها؛ ولذا يُعدّ من أسباب فساد العقيدة المهمّة في الماضي والحاضر.

وقد حذّر القرآن الكريم من التقليد غير الواعي والمجرّد عن كلّ عقلٍ أو ضابطٍ شرعيٍّ، وإن كان حقًّا في مواضع عدّةٍ من كتابه الحكيم؛ ولذا لا بدّ من التفكير والنقد العقلانيّ والمطالبة بالدليل. قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة النمل: 64].

كما رفض الإسلام التّعصُّبُ لما سار عليه الآباء والأجداد فكرًا وسلوكًا، والتمسّــك به وإن كان باطلًا؛ لأنّ ذٰلك من أجلى مصاديق التقليد الأعمى الّــتي يرفضها العقل، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَــا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَــيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾[سورة البقرة: 170].

ج. اعتماد خطابٍ دينيٍّ غير عقلانيّ

يُعــدّ الخطاب الدينيّ من أكثر الخطابات تأثيرًا ووقعًا في نفوس المجتمعات المتديّنــة، خصوصًا خطابات بعض الرموز الدينيّــة المعروفة، ومن ضمنهم بعض الرموز المتطرّفة من ذوي الميول التكفيريّة أو المغالية.

والمشكلة الأهمّ أنّ التأثير السلبيّ لهٰؤلاء المتطرّفين عَقَديًّا لا ينحصر بذٰلك فحســب، بل يتعدّى تأثيره الســلبيّ إلى الإضرار بالصورة النقيّة والأصيلة للدين والعقيدة الإسلاميّة.

فالخطــاب الدينيّ عمومًا ينبغي أن يكون معتمــدًا على التفكير العقلانيّ البرهانيّ وموجّهًا للعقل والروح معًا، مبتعدًا في كلّ ذٰلك عن البدع والخرافات

العَقَديّــة الموجبة لإثارة الفتن والعصبيّات؛ فإنّهــا حواضن التكفير والغلوّ والتطرّف والبغضاء.

ولذا لا بدّ من تجديد شرح المفاهيم العَقَديّة بلغةٍ عصريّةٍ، وخطابٍ دينيٍّ معتدلٍ، كما ينبغي أن لا تكون الأمّة أســيرةً لمفاهيــم تاريخيّةٍ مغلوطةٍ، أو رهينةً لعقائد قديمةٍ وباليةٍ وإن أُظهرت وزُيّنت في ثوبٍ جديدٍ.

النوع الثاني: الأسباب النفسيّة

وهي الدوافع النفســيّة الّتي يمكن أن تدعو الفرد إلى الانحراف العَقَديّ وإن لم يشــعر بها في نفسه، ولٰكنّها سبقت إلى فكره وقلبه، فيعزّ عليه عند ذٰلك أن يتخلّى عنها حتّى وإن ظهر الحقّ.

وهي أسبابٌ منشؤها في الغالب اعتماد خبراتٍ وتجارب ذاتيّةٍ ناقصةٍ وغير مكتملةٍ شكّلت عُقَدًا نفسيّةً لدى ذٰلك المنحرف، فلا تتضمّن جنبةً معرفيّةً أو علميّةً موضوعيّةً، بل تشــكّل مجرّد أســبابٍ ذاتيّةٍ ووهميّةٍ لها انعكاساتها ومظاهرها الروحيّة والسلوكيّة السيّئة.

فالانحرافات العَقَديّة لا يشترط أن يكون سببها معرفيًّا كهشاشة الفكر، أو الجهل بالدين ومقاصده، بل ربّما تنشــأ حتّى مع امتلاك المستوى العالي من العلوم العقليّــة والدينيّة؛ وذٰلك نتيجة الافتقــار إلى التوازن النفسيّ، فالنظرة الموضوعيّة والمنهج الوسط من بين الاتّجاهات المتطّرفة أو المفرِطة أمرٌ يتّسم بالصعوبة، ولا يمكن تحقيقه إلّا من خلال الذوق السليم، والاستعانة بالتوفيق الإلٰهيّ، قال رسول الله ﷺ: «مَنِ ازْدَادَ عِلْمًا وَلَمْ يَزْدَدْ هُدًى لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا» [الكاشانيّ، المحجّة البيضاء، ج1، ص 126].

ومن أهمّ عوامل تلك الأسباب النفسيّة:

أ. اتّباع الهوى:

وهو سببٌ أساسيٌّ، بل هو أســـاس كلّ خرافةٍ أو بدعةٍ عَقَديّةٍ ومنشؤها. واتّباع الهوى أصلٌ تتفرّع منه بقيّة أغصان شجرة الأسباب الأخرى، فالهوى قد يكون ســـببًا لرفض البدهيّات العقليّة، كما أنّ اتّباع الهوى قد يؤدّي إلى التعسّف في التأويل والتفسير، وردّ النصوص الشرعيّة الصريحة والثابتة.

ولم أجد أروع من كلام الإمام عـــليٍّ ؑ في ذمّه للهوى وفي عدّة مواضع، يقـــول ؑ: «الهوى عدوّ العقل». [الآمديّ، غرر الحكم ودرر الكلم، ج 1، ص 13 و321]، و«غلبة الهوى تفســـد الدين والعقـــل» [الآمديّ، غرر الحكم ودرر الكلم، ج 2، ص 508].

ويُعدّ الإعجاب بالرأي وما ينشأ عنه من تكبّرٍ وغرورٍ معرفيٍّ وحبٍّ للظهور والشـــهرة من أكثر الأسباب النفســـيّة المنتشرة في الأوساط الدينيّة والعلميّة تأثيرًا في حصول الانحرافات العَقَديّة والسلوكيّة. وكلّها خصالٌ يؤدّي طغيانها واســـتفحالها إلى الضلال والانحراف العَقَديّ والسلوكيّ، فقد روي عن عليّ بن أبي طالب ؑ قوله: «مَنْ أُعْجِبَ بِرَأْيِهِ ضَلَّ، وَمَنِ اسْتَغْنَى بِعَقْلِهِ زَلَّ، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى النَّاسِ ذَلَّ» [المجلسيّ، بحار الأنوار، ج 1، ص 160].

ب. الرغبة في التحرّر والانفلات من القيود الّتي يفرضها الالتزام بالعقيدة الحقّة؛ بســـبب سطوة الشهوات والغرائز ومحاولة الهروب من الشعور بالذنب ووخز الضمير الناتج عن الكفر والمعصية والعصيان.

ويُعدّ هٰذا الســـبب من أبرز أســـباب الانحراف العَقَديّ بين الشـــباب والمراهقين، إذ يتعارض الاستمتاع بالشهوة مع الشعور بالذنب ووخز الضمير،

ويكون على المرء أن يختار بين طاعة الله أو الانخراط في الشـــهوات، فيكون قراره هو التخلّص من الدين وعقيدته الحقّة، وما يســـتتبعهما من تكاليف والتزاماتٍ؛ وذٰلك لأنّ إثبات المبـــدإ الإلٰهيّ، والإيمان بخالقيّة الله وحكمته يُعدّ منطلقًا لوجوب الالتزام بمجموعةٍ من العقائد ولوازمها الســـلوكيّة الّتي تفرض على الإنســـان الشعور بالمسؤوليّة في كلّ ممارســـاته وأفعاله الاختياريّة. [انظر: مصباح (يزدي)، دروسٌ في العقيدة الإسلاميّة، ص 120]

ج. ردّة فعلٍ نفسيّةٍ ناشئةٌ من التطرّف والجمود الدينيّ وسوء تصرّف بعض رجال الدين من الجاهلين بالدين الأصيل، أو المتّبعين لأهوائهم وشهواتهم.

وهنالك الكثير من الشـــواهد الواقعيّة والمســـجّلة الّـــتي غالبًا ما يكون منشؤها مجرّد ردّة فعلٍ نفسيّةٍ ســـاخطةٍ على بعض الرؤى الدينيّة المتزمّتة، أو صرخة احتجاجٍ في وجه بعض الممارســـات غير الإنسانيّة الّتي تقوم بها بعض الجماعات الدينيّة المتطرّفة. وممّا يدل على ذٰلك أنّ بعض الشـــباب المســـلم الّذي يعيـــش حالة ضياعٍ ونفورٍ من الدين عندمـــا يتمّ الحديث معه بهدف رفع شُـــبهاته العَقَديّة يفصح في كلامه أنّ أساس عدم قبوله للدين الحقّ إنّما هو نتيجة نفوره من تلك النســـخة المشوّهة والفظيعة الّتي يُراد تقديمها عن الإسلام. وهنالك الكثير ممّن ألحدوا كان إلحادهم ردّة فعلٍ نفسيّةً من التشدّد والتطرّف الدينيّ والتشـــدّد الاجتماعيّ الّذي يتربّى عليه الشخص، فيؤدّي به إلى نفورٍ من الدين والتديّن. [انظر: البراء العوهليّ، لماذا يلحد بعض شبابنا؟ ص 1]

النوع الثالث: الأسباب الاجتماعيّة

وتتمثّل بالظروف والأوضـــاع الاجتماعيّة الســـيّئة الّتي تظهر في بعض

المجتمعات والشعوب، حيث تضيع الرؤية الصائبة على قاصري النظر وضعاف التفكير منهم. [انظر: مصباح (يزدي)، دروسٌ في العقيدة الإسلاميّة، ص 121]

فالإنسان يتأثّر عادةً ـ إيجابًا أو سلبًا ـ بالبيئة الاجتماعيّة الّتي يعيش فيها، فإن كانت صالحةً، قادته إلى الصلاح، وإن كانت فاسدةً قادته إلى الفساد، وهو سببٌ مطّردٌ تقريبًا، وهٰذا السبب لا يكاد ينكره إلّا من خالف وجدانه، والوقائع والتجارب الحياتية تثبت ذٰلك.

فهنالك من الأفراد من كانوا في بداية أمرهم من الصلحاء، ويملكون قدرًا معتدًّا به من المقدّمات الإيمانيّة، لٰكنّها لم تستطع مقاومة العقل الجمعيّ لمادّة الانحراف، وتتمثّل الأسباب الاجتماعيّة بجملةٍ من العوامل من أهمّها:

أ. الإعجاب بالكفّار والتشبّه بهم

وهو أحد أسباب الانحراف العَقَديّ الكاشفة عن ضعف المناعة العَقَديّة والإيمانيّة في أفراد المجتمع، نظير ما قاله بنو إسرائيل لنبيّهم ﷺ: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [سورة الأعراف: 138].

فالإعجاب بما عند غير المسلمين من أفكارٍ وعاداتٍ، وربطها بما لديهم من تطوّرٍ ماديٍّ، أثّر في نفوس البعض، ممّا حدا بهم إلى محاراتهم والتشبّه بهم، وتقليدهم في أفكارهم وسلوكهم، وأساليب حياتهم المختلفة؛ إعجابًا بهم وتأثّرًا بما وصلوا إليه من تقدّمٍ وتطوّرٍ ماديٍّ، فكان ذٰلك عاملًا من عوامل الانحراف العَقَديّ الّتي أثّرت في المجتمعات الإسلاميّة، وأفقدتها الثقة بما لديها من موروثٍ دينيٍّ وحضاريٍّ. [ضامري، إسهامات المسجد في مواجهة الانحرافات الفكريّة والخلقيّة، ص 153]

ب. الحروب والصراعات الاجتماعيّة

وهي من العوامـــل المغذّية لظهور الانحرافات العَقَديّة المتطرّفة أو المغالية وانتشارها، خصوصًا في البيئات الاجتماعيّة الّتي تعيش حالة عدم الاستقرار الســـياسيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ، والحاصلة بسبب عدم ملاءمة ظروف الحياة لحصول الصراعات والحروب والخصومات والمنازعات وشيوع الحرمان والفقر وحالة الفوضى، والمصائب والابتلاءات والبطالة .

ج. معاشرة وصحبة أهل الأهواء والبدع

وتعدّ الصحبة الســـيّئة من أخطر العوامل الاجتماعيّة المؤثّرة في حصول الانحرافـــات العَقَديّة المختلفة. وقد بيّن النبيّ الأكـــرم ﷺ أثرها الكبير في ميول الإنسان واتّجاهاته بقوله: «مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إمّا أن يحذيك، وإمّا أن تبتاع منه، وإمّا أن تجـــد منه ريحًا طيّبةً، ونافخ الكير إمّـــا أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثةً» [البخاريّ، صحيح البخاريّ، ج 3، ص 63، ح 2101].

ولا شكّ أنّ لرفقاء السوء ـ وهم مجموعة الأفراد المقاربين للإنسان في عمره ومنزلته الاجتماعيّة ـ دورًا كبيرًا في عقيدة الفرد، خصوصًا مع وجود شخصيّةٍ ضعيفةٍ أو لديها الاســـتعداد الذاتي للانحراف [انظر: أبو عمرة، فايز حسان، أسباب الغلوّ الفكريّ وسبل علاجه في ضوء القرآن الكريم، ص 133]، قال رسول الله ﷺ: «المرءُ على دينِ خليلهِ وقرينهِ» [الكلينيّ، أصول الكافي، ج 2، ص 375].

ومن هٰذا المنطلق يتّضح لدينا سبب اهتمام الإسلام بالمؤاخاة بين المسلمين، فالأخوة الإســـلاميّة فكرةٌ عظيمةٌ تحمي المجتمع من الوقوع بالانحراف بكلّ

أنواعه، وتضفي على الحيـــاة الطمأنينة والأمن بمحافظة كلّ أخٍ على أخيه من الوقوع في الأخطاء، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة الحجرات: 10].

د. تفكّك الأسرة وضعف الرقابة فيها

تمثّل الأسرة المجتمع الصغير بالنســـبة للأبنـــاء، ومن خلالها ينطلقون إلى المجتمع الكبير حاملين معهم ما اكتســـبوه من مجتمعهم الأوّل من عقائد وعاداتٍ وأفكارٍ.

وتنبع أهمّيّة الأسرة في أنّها تلعب الدور الرئيسيّ في الإبقاء على نسق الحياة الاجتماعيّ واستمراريّته، من خلال تنشئة أبنائها وتنميتهم وحمايتهم، ومن خلال غرسها ونقلها للعقائد والقيم الروحيّة والدينيّة والأخلاقيّة إليهم.

إنّ حرمان الطفل من حنان الأبوين أو أحدهما أو معاملته بالقسوة منذ صغره، أو سوء العلاقة بين الزوجين، يساعد كثيرًا على أن ينشأ الطفل قاسيًا ناقمًا على مجتمعه، وهٰذا ما يجعله يتّخذ من الانحراف بمختلف أنواعه وسيلةً للثورة على كلّ التقاليد والأعراف لبيئته ومجتمعه.

وقد أشار النبيّ محمّدٌ ﷺ إلى أثر الوالدين في تنشئة أبنائهم العَقَديّة بقوله: «ما من مولودٍ إلّا يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّســـانه» [المجلسيّ، بحار الأنوار، ج 3، ص 281].

هـ. الأسباب الوراثيّة

وهٰذا ما أثبتته البحوث العلميّة المتأخّرة في علوم الوراثة وتطبيقاتها، الّتي أكّدت على أنّ الوراثة البايولوجيّة لا تختصّ بالخصائص والصفات الجســـديّة فحسب، بل تشمل الكثير من الصفات النفسيّة والخُلقيّة والعقليّة أيضًا؛ لأنّها

عبارةٌ عن: «انتقال ســـماتٍ عقليّةٍ وبدنيّةٍ من الوالدين إلى الأبناء من خلال المورثات» [عبد المنعم الحفنيّ، موسوعة علم النفس والتحليل النفسيّ، ج1، ص 353].

والصحيــح أنّ الصفات الوراثيّة البايولوجيّــة أو الاجتماعيّة لا تتّصف بصفة الحتميّة، بل إنّها تسلك سلوك عاملٍ مساعدٍ فقط في سلوك الإنسان، فهي ليست قضاءً حتميًّا و قدرًا لازمًا.

إنّ الأساليب التربويّة وعوامل المحيط إن اتّفقت مع تلك الصفات الوراثيّة ظهرت بسرعةٍ وبقوّةٍ، وإن خالفتها فإنّ التربية تتغلّب على الوراثة، والمحيط يكــون أقوى من الصفات الموروثة؛ ولهذا فإنّ الإســـلام يهتمّ بتربية الأفراد الّذين يملكون تربةً مساعدة للفساد والانحراف، ويأمل باحتمال إصلاحهم وسلوكهم سبل الســـعادة [محمدتقي فلسفي، الطفل بين الوراثة والتربية، ص 131].

الرابع: طبيعة الانحرافات العَقَديّة وطرق علاجها

بعد تلك الجولة السريعة في الأســـباب المعرفيّة والنفســـيّة والاجتماعيّة الشائعة والأساسيّة الّتي كانت منشـــأً لوجود الانحراف والتطرّف العَقَديّين، والآثـــار الفرديّة والاجتماعيّة الضارّة المترتّبـــة عليها، يأتي الحديث في بيان حقيقة مشـــكلة الانحراف العَقَديّ وطرق وأساليب المعالجة الفعّالة للقضاء أو الحدّ من غلواء ظاهرة الانحراف العَقَديّ وتشكّلاتها ومظاهرها المختلفة.

1. أساليب علاج الانحراف العَقَديّ

إنّ مشـــكلة الانحراف العَقَديّ هي في حقيقتها مشكلتان وليست مشكلةً واحدةً، والمشكلتان هما: مشـــكلة الفراغ العَقَديّ، ومشكلة منافذ الفساد [الشـــيرازيّ، مناشـــئ الضلال ومباعث الانحراف، ص 199]؛ ولذا فإنّ هنالك حاجةً وضرورةً لوجود نوعين مختلفين من أساليب العلاج هما:

الأسلوب الأوّل: علاج مشكلة الفراغ العَقَديّ

أصل مشـــكلة الفراغ العَقَـــديّ تعود إلى أنّ النفس الإنســـانيّة لا تقبل الجهل والفراغ أبدًا، ولا تستأنس بهما، وترفض أن لا يكون لديها العلم بما تواجهه من أســـئلةٍ وقضايا ضروريّةٍ، خصوصًا أسئلة الإنسان المصيريّة الّتي تحدّد موقفه من هٰذه الحياة: من أين جاء؟ وإلى أين ينتهي؟ ولماذا وُجِدَ؟

فإذا لم تحصل النفس البشريّة على الأجوبة الصحيحة عن تســـاؤلاتها، أسرعـــت إلى تعبئة ذٰلك الفراغ بما لديها من أهـــواءٍ وأفكارٍ، وبما يزوّدها به أصحاب العقائد الوضعيّة والدينيّة المحرّفة من شبهاتٍ وتصوّراتٍ خاطئةٍ.

وكما قال أبو العتاهية:

إنّ الشباب والفراغ والجدة مفسدةٌ للمرء أيّ مفسدة!

ولا شـــكّ أنّ تلك الأفكار الخاطئة ستكون ســـببًا للضلالة ولارتكاب الأخطاء واجتراح المعاصي؛ نتيجة غياب الغايات الكبرى والمقاصد العليا، خصوصًا في نفوس الشـــباب اليافع وعقولهم. فالفراغ الفكريّ من أخطر ما يهدّدهم؛ إذ يجعلهم عرضةً لأيّ تغذيةٍ عَقَديّةٍ منحرفةٍ.

والنتيجة النهائيّة للفراغ الفكريّ هي أن يسود المجتمعَ خليطٌ من الأفكار الفاسدة، والخرافات والتصوّرات الوهميّة والعادات الجاهليّة، ويصبح المجتمع مفتوح الثغور لكلّ فكرٍ ضالٍّ. فالفراغ الفكريّ والعَقَديّ لا يؤدّي إلى الجهل والفراغ فقط، بل يسمح أيضًا بدخول الآراء والمعتقدات الباطلة.

ويتمّ علاج مشكلة الفراغ الفكريّ في العقيدة من خلال:

أوّلًا: تقديم الأجوبة النظريّة والعلميّة حول الأسئلة والشبهات المثارة حول العقيدة الإسلاميّة، والتركيز على بيان محاسن الإسلام ومزاياه العظيمة، وتقوية الاعتزاز به.

ثانيًا: التوصية بتعزيز الروافد المعرفيّة السليمة تقويتها، من خلال إقامة الدورات التعليميّة والتوعويّة المكثّفة، الّتي من شأنها توضيح الحقائق ونشر الوعي والفكر المستنير.

ثالثًا: إنشاء مراكز الدراسات التحليليّة والإرشاديّة والمدارس التخصّصيّة بهدف تربية المبلّغين والخطباء والوعّاظ الصالحين والأكفاء، الّذين يتصدّون للضلالات والشبهات العَقَديّة وتفنيدها، وتغذية عقول الناس بالعلم والمعرفة الدينيّة الصحيحة. [المصدر السابق]

رابعًا: الاهتمام بمراكز سدّ الفراغ الفكريّ الأساسيّة وأهمّها:

- الأُسرة: وهي المركز الأوّل والأقوى في ملء الفراغ الفكريّ في حياة الطفل، ولها الدور الأكبر في توجيهه وتكوينه عَقَديًّا، وسدّ الطريق أمام حصول الانحرافات العَقَديّة المختلفة.

وبالقدر الّذي تقدّمه الأسرة للطفل من مميّزاتٍ تربويّةٍ، سيتمكن الطفل بالقدر نفسه من مقاومة الانحرافات العَقَديّة والسلوكيّة في المجتمع.

➢ المؤسّسات التعليميّة: وهنا تلعب المدرسة والمؤسّسات التعليميّة المختلفة عمومًا دورًا كبيرًا في ربط التعليم بعقيدة الأمّة وهويّتها الصحيحة، وتنقية عقيدتها من الشوائب المخالفة لأصول العقيدة الإسلاميّة ومسائلها المختلفة.

ولذا لا بدّ من إصلاح الخلل في مناهج الدراسة الدينيّة الّتي لا تزرع اليقين العَقَديّ في النفوس، والاهتمام بترسيخ ملكة التفكير الناقد، وتنمية القدرة على إصدار الأحكام الصائبة.

فالتعليم الدينيّ الّذي لا يُنمّي الفكر الناقد، والمفتقر للمنطق العقليّ في مناقشة الموضوعات العَقَديّة الخلافيّة، والمعتمد على أسلوب التسلّط في إيصال المعلومات والأفكار، يؤدّي إلى الإحساس بالقهر وروح التمرّد، خصوصًا لدى الفئات العمريّة المراهقة.

وممّا لا شكّ فيه أنّ العمليّة التعليميّة ما دامت تسير في طريقها السليم، فإنّها ـ بلا شكٍّ ـ ستُخرج أفرادًا ذوي سلامةٍ فكريّةٍ وعقديّةٍ، وذوي مقاومةٍ كافيةٍ إلى كلّ التيّارات الضالّة والمنحرفة.

الأسلوب الثاني: علاج مشكلة منافذ الفساد

إنّ مشكلة فساد العقيدة وانحرافها ليست نتاج مشكلة الفراغ الفكريّ فحسب، بل هنالك منافذ وممهّدات للفساد والإفساد، وهي ليست فكريّةً بالضرورة، بل إنّها تهيّئ الأنفس لتقبّل الأفكار المنحرفة، ولهٰذه المنافذ يلزم أن تُسَدّ قدر الإمكان، وإلّا تحوّلت إلى أدواتٍ بأيدي المدّعين يعبرون من خلالها إلى مآربهم وأهدافهم. [المصدر السابق، ص 200]

ولذا فإنّ العلاج الحقيقيّ للعقيدة الفاسدة لا يقتصر على نقد الأسس والمبادئ الّتي تقوم عليها تلك العقائد الضالّة وتفنيدها ودحض حججها بالمناقشة العلميّة؛ فهنالك الكثير من المنحرفين يعلمون بأنّهم على ضلالٍ، لٰكنّ المشكلة أنّهم أصبحوا أسرى شِباك حاجاتهم ومصالحهم المادّيّة والدنيويّة.

فالمطلوب إذن هو سدّ كلّ هٰذه المنافذ، أو تقليل أثرها قدر الإمكان، ويتمّ ذٰلك من خلال عدّة ممارساتٍ، فمن جانبٍ يتمّ تطعيم أفراد المجتمع المسلم ضدّ كلّ الأفكار الجاهليّة والمنحرفة الّتي يُخشى من تسلّلها إليهم، ومن جانبٍ آخر العمل على عزل المجتمع المسلم عن أفكار المجتمعات الضالّة والمنحرفة وثقافاتها. ومن جهةٍ أخرى يجب العمل على طرح الضدّ النوعيّ لتلك العقائد الفاسدة، والمتمثّل بالعقيدة الإسلاميّة الحقّة وبيانها بأسلوبٍ يراعي حاجة العصر ومتغيّراته ومشكلاته وذهنيّته.

كما ينبغي العمل على توفير كلّ الحاجات الجسديّة المادّيّة والروحيّة المعنويّة وبمختلف أنواعها؛ لأنّ غيابها أو نقصانها قد يُمهّد أو يهيّئ الأجواء للانحراف والضلال العَقَديّ وشيوعه. [المصدر السابق]

خامسًا: طرق معالجة الانحرافات العَقَديّة

إنّ طرق معالجة الانحرافات العَقَديّة أو مكافحتها ينبغي أن تكون منسجمةً مع أسبابها ومناشئها، فالأسباب المعرفيّة للانحراف مثلًا يتمّ علاجها من خلال الدليل البرهانيّ العقليّ، والأسباب النفسيّة له يتمّ علاجها من خلال التهذيب وجهاد النفس والتربية، والأسباب الاجتماعيّة يتمّ علاجها من خلال التنشئة الاجتماعيّة الصحيحة. ولٰكن بشكلٍّ عامٍّ هنالك ثلاث طرقٍ أساسيّةٍ في مواجهة أسباب الانحرافات العَقَديّة وآثارها الضارة:

الأولى: الطرق الإنمائيّة التأسيسيّة

وهي الطرق الّتي تعتمد استراتيجيّة التنشئة العَقَديّة السليمة، من خلال الاهتمام بالجانب الإنمائيّ التأسيسيّ في التربية الفكريّة والدينيّة والتعليم الدينيّ، وتتمّ هٰذه الطرق من خلال ثلاث مراحل ومستويات:

المستوى الأوّل: التربية الفكريّة

ويُعدّ هٰذا المستوى من أهمّ المستويات على الإطلاق، إذ يتمّ من خلاله معرفة المنهج العلميّ الموصل للحقائق العَقَديّة الصائبة.

وفي هٰذا المستوى تتمّ تنمية التفكير العقلانيّ وترشيده بالعقيدة.

المستوى الثاني: التربية الدينيّة

وهي عبارة عن النشاط الدينيّ والممارسة العمليّة للدين، والّتي تترك أثرها الواضح في عقيدة الفرد والمجتمع. ويجب العمل في هذا المستوى على تقوية ملَكة الإيمان والتقوى في النفوس وتنمية الضمير الخُلقيّ، وذٰلك عن طريق جهاد النفس وغرس القيم والفضائل والآداب والأخلاقيّات والعادات الاجتماعيّة الكريمة الّتي تدعم حياة الفرد وتحثّه على أداء دوره في الحياة بشكلٍ أفضل.

المستوى الثالث: التعليم الدينيّ

ويتمّ من خلال بناء وإعادة تأهيل المنظومة العَقَديّة للفرد والمجتمع، وتثبيتها في النفوس بالدلائل والبراهين الجليّة، من خلال بناء منظومةٍ فكريّةٍ عَقَديّةٍ متماسكةٍ، ومنسجمةٍ مع الواقع والفطرة، وخاليةٍ من الثغرات،

وتلك هي عقيدة الإســـلام الأصيل وفق رؤية أهل البيت عليهم السلام. [انظر: صالح الوائلي، مشروع التأهيل الفكريّ، ص 40]

إنّ من نتائج وثمرات التعليم الدينيّ الفعّال زيادة الوعي الفكريّ، وزيادة التثقيف الذاتيّ والجمعيّ. فأمّا الذاتيّ فيتمّ من خلال مطالعة الكتب النافعة، والاطّلاع على حقيقة الأفكار والمبادئ الدخيلة والوافدة على مجتمعات المسلمين وعقيدتهم، وأمّا التثقيـــف الجمعيّ فيتمّ من خلال الدرس والتدريس اليوميّ للعقيـــدة الحقّة في المراكز التعليميّة الأكاديميّة منها والحوزويّة، والمشـــاركة والاستماع إلى محاضرات الأســـاتذة والخطباء، وبذلك يستطيع الفرد المسلم أن يميّز جيّدًا بين الفكر الأصيل والفكر الدخيل. [انظر: القزوينيّ، دروسٌ قرآنيّة في تزكية النفس وتكاملها، ص 33 و34]

الثانية: الطرق الوقائيّة التحصينيّة

وهٰذا الدور الوقائيّ هو في حقيقته مكمّلٌ ومتمّمٌ للدور الإنمائيّ التأسيسيّ، بل ولا يقلّ أهمّيّةً عنه؛ إذ يظنّ كثيرٌ من الآباء والأمّهات أنّ دورهم في تربية أولادهم ينتهي عند بلوغ الولد أو البنت ســـنًّا معيّنةً، فيغفلوا عنهم ظنًّا أنّ أولادهم كبروا وحصلوا على التنمية والتوجيـــه الدينيّ والعَقَديّ الكافي، فلا حاجة لمتابعتهم ووقايتهم من أخطار الانحرافات العَقَديّة والأخلاقيّة، وهٰذا خطأٌ شائعٌ في التربية تنتج عنه مشـــاكل لا تُحمد عقباها؛ لأنّ الفكر الهدّام ينتقل بسرعةٍ كبيرةٍ، ولا مجال لحجبه عن الناس، فالحصانة العَقَديّة المتكاملة لا تحصل بمجرّد منع الأفكار المنحرفة وحجبها عن الدخول إلى عقول الشباب واليافعين فحســـب، فهٰذا يجعلهم في مزيدٍ من اللهفة لمعرفتها، وإنّما يكون من خلال تبصير الناشئة بانحراف هٰذه الأفكار عندما تصل إليهم، فيعرفون

بعد ذٰلك كيــف يتعاملون معها. [انظر: أحمد ســالم، الانحراف والتطرّف الفكريّ، ص 5]

ولا شكّ أنّ خطورة مشــكلة الانحراف العَقَديّ والآثار الجسيمة المترتّبة عليها تتطلّب منّــا أن نضع آليّاتٍ للوقاية منها قبــل التفكير في علاجها؛ وبذٰلــك نحدّ من قابليّة وجود مثل هٰذه الظاهــرة الخطيرة حتّى قبل وجودها. [المصدر السابق]

وأهمّ الطرق الوقائيّة الفاعلة في منع فساد وانحراف العقيدة الحقّة:

أ. الاهتمام بتفعيــل دور مراكز الوقاية العَقَديّــة في المجتمع وتقويتها، فالأسرة والمسجد والمؤسّســات التعليميّة والتربويّة المختلفة لها دورٌ فعّالٌ في وقاية أفراد المجتمع وتحصينهم من الانحرافات العَقَديّة المختلفة، من خلال وظيفتها في التوجيه والإرشاد، والضبط والمتابعة والتقويم، وما تؤدّيه من دورٍ إيجابيٍّ في تعميق قاعدة الإيمان، وتأكيد مبدإ الوســطيّة والقدوة الحسنة في المجتمع، وشــغل أوقات الفراغ بالعلم النافع، والأثر الّذي يمكن أن تحدثه العبادات في نفوس أفراد المجتمع. [المصدر السابق]

ب. دور وســائل الإعلام المختلفة ـ ممثّلةً في الإذاعة المرئيّة والمسموعة، والصحف والمجلّات، ودور الرقابــة الفكريّة والثقافيّة ـ في تنقية العقيدة الحقّة من الانحرافات والشــبهات العَقَديّة المختلفــة، بما لها من تأثيرٍ كبيرٍ في تعريــة الأفكار والعقائد المضلّلة والدخيلة، والتحذير منها، وبيان آثارها الدينيّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة الضارّة على الفرد والمجتمع.

ج. دعم فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكلّ ما من شــأنه منع تســلل الانحراف العَقَديّ وحفظ المجتمع من آثاره ومظاهره. [انظر: حســن ضامري، إسهامات المسجد في مواجهة الانحرافات الفكريّة والخُلقيّة، ص 5]

الثالثة: الطرق العلاجيّة

وهي تلي الطرق الوقائيّة في حماية الفرد والمجتمع من الانحرافات العَقَديّة، فإذا لم تؤدّ الأولى دورها في سـدّ طرق الفكر المنحرف من التغلغل في عقول الناس، فلا بدّ حينئذٍ من اسـتخدام وسائل علاجيّةٍ يتمّ من خلالها مُعالجة من انحرف في فكره وعقيدته، وهنالك بصورةٍ عامّةٍ أسلوبان في معالجة فساد العقيدة وانحرافها، وهما:

الأسلوب الأوّل: العلاج النظريّ

ويتم تحقيقه من خلال:

أ. إثراء البحث الكلاميّ وتعميقه أسـوةً بالبحـث الفقهيّ، والهدف من ذٰلك إقامة البراهين والأدلّة في الدفاع عن العقيدة الحقّة، ودحض الشـبهات العَقَديّة المختلفة.

ب. فتح باب الاجتهاد الكلاميّ: وهذا يُسهم في إيجاد مناخٍ يقبل التنوّع، وحرّيّة الرأي، كما أنّه يسهم في تجاوز السطحيّة في فهم الدّين؛ نتيجة الجهل بأبعاده ومقاصده، وتجاوز كلّ التأثيرات السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة الدخيلة على البحث الكلاميّ. [محمّد شـقير، طرق العلاج لظاهرة التكفير، ص 1]

ج. تحديـد أصول الاسـتنباط العَقَـديّ (قواعد الإثبـات العَقَديّ)، وتدوينها، وتبويبها في إطار علمٍ خاصٍّ أسـوةً بعلم أصول الفقه؛ لأنّ بقاء القواعد الكلاميّة مبثوثةً ضمن علم الكلام التقليديّ معناه عدم نضج علم الكلام الّذي يخـدم العمليّة الاجتهاديّة الكلاميّة. ومـن جهةٍ أخرى، فإنّ وجود مثل هٰذا العلم واعتماده قواعد صحيحةً ومنضبطةً من شـأنه أن يحدّ

من التخبّط الكلاميّ، والتعامل الملتبس مع بعض وسائل الاستدلال الكلاميّ وطرقه، كما نجد ذٰلك في الخلط الحاصل بين وسائل الإثبات العَقَديّ، وبين وسائل الإثبات الفقهيّ، مع أنّ البون شاسعٌ جدًّا بين العِلمين في الموضوع والوظيفة والغرض، كما في قضيّة الأخذ بخبر الواحد. [انظر: الخشن، حجّيّة خبر الواحد في العقائد، ص 3]

الأسلوب الثاني: أسلوب العلاج العمليّ

ويعني علاج ظاهرة الانحراف العَقَديّ وثقافته من خلال علاج أسبابه ومبرّراته وآثاره، باتّخاذ جملةٍ من الإجراءات والآليّات العمليّة التنفيذيّة، وأهمّها:

أ. العمل على غربلة التراث التفسيريّ والروائيّ الإسلاميّ في المجال العَقَديّ، بهدف تشخيص الأحاديث الموضوعة وعزلها؛ إذ يتّخذ منها أصحاب الدعوات الضالّة والهدامة عادةً مبرّرًا لقبول دعواتهم الفاسدة.

والعلاج العمليّ لما فسد من ذٰلك التراث إنّما هو بالعودة إلى كتاب الله وما صحّ من أحاديث النبيّ وعترته الطاهرة؛ ليكونا المصدر المُعتَمَد في مجال العقيدة، وليكونا المعيار والميزان الّذي يوزَن بهما أيّ نتاجٍ معرفيٍّ دينيٍّ. [انظر: محمّد شقير، طرق العلاج لظاهرة التكفير، ص 1]

ب. يجب أن يُعمَد إلى التُّراث العَقَديّ الفاسد والرائج لدى التيّارات المنحرفة في الساحة المعاصرة بهدف تشريحه وتفكيكه ونقده، ومحاولة تعريته من أيّ نظرةٍ قدسيَّةٍ تهدف إلى جعله متعاليًا على النقد؛ إذ إنّ هٰذا التُّراث تشكّل في معظمِه متأثّرًا بظروفٍ وأجواءٍ ومعطياتٍ غير صحّيَّةٍ. [المصدر السابق]

ج. تنفيذ استراتيجيّات والخطط الّتي تتصدّى للانحرافات العَقَديّة بمختلف أنواعها، والّتي تتكفّل بعلاج ما فسد من عقيدة المجتمع، أو لا

أقلّ من أن تعمل على تقليل تأثير أخطار تلك الانحرافات وشرورها، وبالتالي تحقيق العلاج الشافي أو الاحتواء المناسب لها.

ومن جملة تلك الستراتيجيّات العمليّة وأهمّها:

➢ تعزيــز دور العلماء وطلبة العلوم الدينيّــة في توعية الناس بالعقيدة الصحيحــة والثقافة الإســلاميّة الأصيلة، وتصحيــح المفاهيم الخاطئة في مسائل العقيدة المختلفة؛ لأنّ الفكر لا يعالَج إلّا بالفكر، والعقيدة المختلّة لا يمكن أن تعالَج إلّا بالعقيدة الناصعة السديدة. [أحمد الشحّيّ، استراتيجية علاج الفكر المنحرف، ص 1]

➢ تجديد أسلوبِ الخطابِ الدينيّ وتطويره؛ ليجمع بين الأصالة والمعاصرة، فيســتمدّ أصالته وأصــوله وقواعده وأحكامه من الكتاب والســنّة الثابتة، ويواكب في أســلوبه وطريقة عرضه حاجة العصر ومتغيّراته ومشــكلاته وذهنيّته، بحيث يكون قريبًا من واقع الناس وقضاياهم، ملائمًا لثقافاتهم، يخاطبهم بما يعقلون، ويبيّن لهم الصواب فيما يحتاجون. [المصدر السابق]

كما يجب إشــاعة التفكير العقلانيّ في ميادين العلوم الدينيّة، وتشجيع الأذكياء وأصحاب القابليّــات العلميّة من طلبة العلوم الشرعيّة وغيرهم في مجال التأليف والتبليغ والالتحاق بالخطابة الدينيّة وذلك بهدف سدّ الفراغ في مجال الوعظ والإرشاد الدينيّ الّذي قد يشغله بعض الجهلة والمنحرفين عقديًّا.

➢ ترســيخ ثقافة التعاون والتضامن والمســؤوليّة المشــتركة بين الناس في مكافحة أســباب الانحراف العَقَديّ وآثاره. فليســت مســؤوليّة الرقابة الاجتماعيّة للانحرافات العَقَديّة في المجتمع وعلاجها هي وظيفة علماء الدين والموجّهين التربويّين خاصّةً، بل هي مســؤوليّة كلّ أفراد المجتمع، من علماء دينٍ ومربّين وآباء وأساتذةٍ وأكاديّميين وغيرهم. [المصدر السابق]

➢ احتواء المغرّر بهم من أصحاب العقيدة المنحرفة، بمناقشتهم ومحاورتهم وبيان الحــقّ لهم، ويتمّ ذٰلك من خلال إتاحة الفرصــة الكاملة للحوار الحرّ الرشــيد داخل المجتمع الواحد، وتقويم الاعوجاج بالحجّة والإقناع؛ وذٰلك لأنّ بديــل التحاور هو تداول هٰذه الأفكار بطريقةٍ سرّيّةٍ وغير موجّهةٍ، وهٰذا ما يضفي عليها نوعًا من القدســيّة والأهمّيّة المزيّفــة، فكلّ ممنوعٍ مرغوبٌ، والحوار العَقَديّ بلا شكٍّ ذو فوائد جمّةٍ إذا اعتمد الأسلوب الأمثل الّذي يزيل عن أبصار من غُرّر بهم الغشاوة؛ لكي يُرشدهم إلى الطريق الصحيح، امتثالًا لقول الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَــبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: 125].

➢ التصدّي الأمنيّ والعســكريّ لأصحاب الفكر العَقَديّ المنحرف من الّذين حملوا الســلاح، فأخافوا الســبيل وأخلّوا بالأمن، وأحدثوا فسادًا أو تدميرًا في الأنفس أو الأموال أو الأعــراض، كما يمكن العمل على تخفيف ضررهم وتقليــل شرورهم من خلال محاصرتهم وتحذير الناس من شرورهم. [أحمد الشحّيّ، استراتيجية علاج الفكر المنحرف، ص 2]

الخاتمة

تبقى مسؤوليّة الإنسان في حماية نفسه وعائلته ومجتمعه من الانحراف من أهمّ المســؤوليّات، فقد لا تنفع الدوائر الأخرى في حمل الشــباب على تفادي الوقوع بالانحراف العَقَديّ وآثــاره الوخيمة، ومن هنا تأتي ضرورة أن يعمد الشــابّ أو الفتاة إلى تربية نفسيهما منذ وقتٍ مبكّرٍ على معرفة الصواب من الخطإ في العقيدة، والرجوع إلى ذوي الخبرة والاختصاص في حال عجزوا عن ذٰلك، فالإنسان طبيب نفســه، ويمكنه تفادي الانحرافات العَقَديّة بالمزيد من الرقابة الذاتيّة والتحسّب للنتائج والمخاطر المترتّبة عليها، والتواصي فيما

بينه وبين الآخرين من الأصدقاء والإخوة على مكافحتها والوقاية منها.

خلصت هٰذه الدراسة إلى جملةٍ من النتائج والتوصيات، وأهمّها:

1. أنّ فســـاد العقيدة وانحرافها، قد يصل بحامله حدّ الكفر والخروج من الملّة، وهو المتمثّل بإنكار أصول الدين الأساسيّة أو إنكار الضرورة الدينيّة مع استلزام ذٰلك الإنكار تكذيب الرسالة، وقد يُراد بها الانحرافات العَقَديّة الّتي لم ترتقِ إلى درجة الكفر مع كونها باطلًا وضلالًا ومعصيةً.

2. أنّ عـــلاج الظاهرة ـ أيّ ظاهرةٍ ـ جذريًّا يكمنُ في علاج أســـبابها والأصول المنتجة لها، وأيّ علاجٍ لأعراضها وآثارها فقط ـ رغم أهمّيّته ـ لن يستأصلها من أساسها وجذورها. وثمّة أســـبابٌ متنوّعةٌ ومتعدّدةٌ معرفيّةٌ أو نفسيّةٌ أو اجتماعيّةٌ ساهمت في نشوء العقيدة الفاسدة واتّساعها.

3. أنّ العقيدة الفاســـدة ليست نتاج الجهل والفراغ الفكريّ أو العَقَديّ فحســـب، بل هنالك منافذ وممهّداتٌ يجري اســـتدراج الناس من خلالها؛ ليصبحوا أسرى شِباك حاجاتهم ومصالحهم المادّيّة والدنيويّة.

4. أنّ قضيّة الانحراف العَقَديّ في حقيقتها عبارةٌ عن مشكلتين وليست مشكلةً واحدةً؛ ولذا ينبغي معالجة مسألة الانحراف العَقَديّ ضمن مستويين من العلاج، وهما: علاج مشكلة الفراغ الفكريّ في العقيدة، والعمل على سدّ منافذ الفساد أو تقليل أثرها قدر الإمكان.

5. أنّ طـــرق معالجة الانحرافات العَقَديّة ينبغي أن تكون منســـجمةً مع أسبابها ومناشـــئها، ومتّبعةً للطريقة العلميّة في تحليل أسبابها، والعمل على منع آثارها أو تقليلها. وكلّها تدخل في مصطلحاتٍ أربعةٍ هي: الوقاية والعلاج والاحتواء والتعزير.

قائمة المصادر

1. الإيجيّ، عبد الرحمٰن بن أحمد، كتاب المواقف، تحقيق: عبد الرحمٰن بن عميرة، بيروت، دار الجيل، ط 1، 1997م.

2. ابن منظورٍ، لســـان العرب، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر، ط 6، 1996م.

3. الفيـــوميّ، أحمد بن محمّدٍ، المصباح المنـــير في غريب الشرح الكبير، القاهرة، المطبعة الأميريّة، ط 5، 1922م.

4. الكنديّ، حسن، دروسٌ في العقيدة الإسلاميّة، قم، دار أيتام عليٍّ ﷺ، ط 2، 2017م.

5. الصدر، محمّدباقر، المدرسة القرآنيّة، قم، مركز الأبحاث والدراسات التخصّصيّة للشهيد الصدر، ط 1، 1421 هـ.

6. عبـــد الحميد، عرفان، دراســـاتٌ في الفرق والمذاهب الإســـلاميّة، بغداد، مطبعة الرشاد، ط 1، 1967م.

7. البخاريّ، محمّد بن إســـماعيل، صحيح البخاريّ، تحقيق: محمّد بن زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط 1، 1422 هـ.

8. اليزديّ، كاظم، العروة الوثقى، بيروت، دار الإرشاد، ط 1.

9. الهمدانيّ، رضـــا محمّد بن هادٍ: مصباح الفقيـــه، الهمدانيّ، تحقيق: محمّدباقر وزملائه، قم المقدسة، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، ط 1، 1416 هـ.

10. الكاشانيّ، المولى محسن، المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء، صحّحه وعلّق عليه: علي أكبر الغفاري، بيروت، مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات،

ط 2، 1983م.

11. الشـــيرازيّ، مرتضى الحسيني، مناشئ الضلال ومباعث الانحراف، نمـــاذج من الصوفيّـــة ومنتحلي المهدويّـــة والفـــرق المبتدعة، النجف الأشرف، مؤسّسة التقـى الثقافيّة، 2016م.

12. الكلبايكانيّ، عـــليّ الربّانيّ، محاضراتٌ في الإلٰهيّات، قم المقدّســـة، مؤسّسة الصادق ؑ، ط 4، 1414 هـ.

13. الأنصاريّ، مرتـــضى، فرائد الأصول، تحقيـــق: لجنة تحقيق تراث الشيخ الأعظم، قمّ، مجمع الفكر الإسلاميّ، ط 1، 1419 هـ.

14. الحفـــنيّ، عبد المنعم، موســـوعة علم النفـــس والتحليل النفسيّ، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1975م.

15. ناصر، محمّد، الإلحاد أسبابه ومفاتيح العلاج، قمّ المشرّفة، مؤسّسة الدليل للدراسات والبحوث العَقَديّة، ط 1، 2017م.

16. عطية، عزّت علي، البدعة تحديدها وموقف الإسلام منها، بيروت، دار الكتاب العربيّ، 1973م.

17. فاخر عقـــل، معجم علم النفس، بيروت، دار العلم للملايين، ط 4، 1985م.

18. ســـيّد قطب، خصائص التصوّر الإســـلاميّ، بيروت، دار الشروق، بدون تأريخ.

19. مصباح (يزدي)، محمدتقي، دروسٌ في العقيدة الإسلاميّة، بيروت، دار الرسول الأكرم، ط 8، 2008م.

20. مغنيّة، فلســـفاتٌ إســـلاميّة، بيروت، دار ومكتبة الهلال، ط 6، 1993م.

21. المجلسيّ، محمّدباقـــر، حقّ اليقين في معرفة أصول الدين، طهران،

طبعة مؤسّسة الأعلميّ.

22. المجلسيّ، محمّدباقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، مؤسّسة الوفاء، بيروت، ط 2، 1403 هـ / 1983 م.

23. الحرّ العامليّ، محمّد بن الحسن: وسائل الشيعة، مؤسّسة آل البيتِ عليهم السلام لإحياء التراث، قمّ، ط 1، 1409 هـ.

24. الشاطبيّ، إبراهيم بن موسى، كتاب الاعتصام، تحقيق: سليم بن عيد الهلاليّ، السعودية، دار ابن عفّان، ط 1، 1412 هـ ـ 1992 م.

25. الطباطبائيّ، محمّدحسين، الميزان في تفسير القرآن، قمّ المقدّسة، مؤسّسة النشر الإسلاميّ، ط 5، 1417 هـ.

26. سبحاني، جعفر، في ظلّ أصول الإسلام، بقلم: جعفر الهادي، قمّ، مؤسّسة الإمام الصادق عليه السلام، ط 4، 1414 هـ.

27. صليبا، جميل، المعجم الفلسفيّ، قمّ، ذوي القربى، 1385 ش .

28. الآمديّ، عبد الواحد، غرر الحكم ودرر الكلم، ترجمة: محمدعلي الأنصاري، 1367 ش.

29. فلسفي، محمّدتقي، الطفل بين الوراثة والتربية، ترجمة: فاضل الحسيني الميلانيّ، بيروت، دار التعارف للمطبوعات، بدون تأريخ.

30. ابن هشام، عبد الملك الحميريّ، السيرة النبويّة، تحقيق: طٰهٰ عبد الرؤوف سعد، بيروت، دار الجيل، 1411 هـ.

31. الكليني، محمَّد بن يعقوب، الكافي، الكافي، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، د. ت.

32. الوائلي، صالح، مشروع التأهيل الفكريّ، قمّ المقدّسة، مؤسّسة